ماهر شرف الدين

فضائح الآخرين

وسجالات أُخرى في الأدب والثقافة



فضائح الآخرين

١

ماهر شرف الدين

فضائح الآخرين

وسجالات أُخرى في الأدب والثقافة

ثقافة

الطبعة الأولى، 2021

منشورات ماهر شرف الدين

ISBN: 978-0-9995375-8-9

فضائح الآخرين

اهتمامُ صحافتنا الثقافية بفضيحةِ الفرنسيِّ برنار هنري ليفي، يُثير الريب.

ترجماتٌ ومقالاتٌ عن الفضيحة، وتحليلاتٌ واستخلاصُ عبرٍ. وأين؟ في الصحافة ذاتها التي ترفض، بل وتحارب ظهورَ أيِّ فضيحة «محلِّية» موثَّقة على صفحاتها!

اهتمَّت صحافتنا الثقافية، أيضاً، بفضيحة الألمانية هيلينه هيغمان، وقبلها بفضيحة مواطنها غونتر غراس...

إنَّها فضائح الآخرين. ولأنَّها كذلك تُسعدنا وتزيد من إثارتنا. أمَّا فضائحنا نحن، فهي بالتأكيد «مُلفَّقة» و«ثقافة مكائد»، وأخيراً «صحافة صفراء»!

لكنْ، مَنْ هم الآخرون؟ مَن هم الذين تتحمَّس صحافتُنا الثقافية للتشهير بهم؟ هل هم مثلاً مَن ليسوا عرباً؟

الجواب: بالطبع لا. وهذه ذروة أخرى من ذرى الفساد الثقافي العربي. ففي غير صفحةٍ من هذا العدد (من مجلة «الغاوون») لاحظ

الشاعر المصريّ عبد المنعم رمضان بأنَّ المثقَّفين الذين أدانوا وشهَّروا برؤوف مسعد لزيارته القدس، هم أنفسهم الذين امتدحوا أهداف سويف لزيارتها القدس!

وفي مقالةٍ نُشرت في موقع هامشيّ -على الرغم من أنَّ صاحبة المقالة تنشر في منابر معروفة!- استغربت الكاتبة السورية جاكلين سلام كيف أنَّ المثقَّفين الذين هاجموا إيمان مرسال لقبولها بترجمة ديوانها إلى العبرية، لم يفتحوا فمهم بخصوص ما فعلته الشاعرة اللبنانية جمانة حداد في كتابها «مدينة: قصص مدن من الشرق» التي أشركت فيها كاتباً إسرائيلياً ليتغزَّل بمدينة تل أبيب، ومن دون أن تُخبر الكتَّاب العرب المشاركين بذلك (كما أكَّد جمال الغيطاني ونبيل سليمان).

إذاً، تعبير «الآخرون» يعني كلَّ من هو خارج نطاق سلطة المنابر، فقط لا غير.

إيمان مرسال ليست صاحبة سلطة ثقافية، لذلك لم يتورَّعْ رمز الفساد الثقافي العربي جابر عصفور عن تعليق مشنقتها، في الوقت الذي انشغل فيه بمحو خطوط التجاعيد عن وجه جمانة حداد لإثبات أنها تحت سن الأربعين وإعطائها جائزة للكتَّاب الشباب! إيمان مرسال ليست صاحبة نفوذ، لذلك فارَ الدم في رأس مدير

الصفحة الثقافية في جريدة «الحياة» عبده وازن فجَزَرَها جَزْراً متهماً إيَّاها بأمرَين معاً: السذاجة والانتهازية! مع أنه قام بتخصيص ثلاثة أرباع الصفحة لمديح كتاب «مدينة...» لجمانة حداد مع تجاهل تام لذكر ورود تل أبيب! والأنكى من ذلك أنه كتب البارحة ممتدحاً شجاعة «دار الجمل» في ترجمة رواية لعاموس عوز!

إذاً للسبب ذاته الذي يُفضَح به كاتب ويُشهَّر به في صحافتنا، يُبجَّل كاتبٌ آخر ويصبح بطلاً، فقط لأنه صاحب سلطة.

وفي الحقيقة فكتاب «مدينة...» ليس فضيحة فقط للأسباب التي ذُكرت آنفاً، بل هو فضيحة أيضاً لأن صاحبته تقاضت عليه مبلغاً ضخماً (14 ألف جنيه إسترليني)! ولماذا ترصد دار نشر إنكليزية عادية، مثل «كوما بْرس»، مبلغاً كبيراً كهذا من أجل كتاب؟!

كما أن محاولة الناشر تبرئةَ المعدَّة جاء كدليل إدانة مكتمل الأركان، فلنقرأ ما يقوله: «يودُّ الناشر أن يوضح أنَّ طلب ورود قصَّة لكاتب إسرائيلي يعود إليه، لا إلى مُعدَّة الكتاب جمانة حداد»!! إذاً، هدف الكتاب واضح. وكان من الأَلْيق لـمُعدَّته أن تقول بأنَّها هي من قرَّرتْ إشراك تل أبيب، لا الناشر. فلربما فهمنا من ذلك أنَّه شكل من أشكال المواقف التي تودُّ مناقشة معنى «التطبيع».

لكن ما الذي يجعل الفضيحة في صحافة «الآخرين» ممكنة

وضرورية لتقويم الحالة الثقافية؟ سأجيب بمثالٍ:

في الشهر الفائت، رفضتْ مجلَّة فرنسية شهيرة، «ماغازين ليتيرير»، نشرَ مقالٍ لأحد كتَّابها ينتقد فيه الطبعة الجديدة لأعمال لوترينامون الصادرة لدى «دار غاليمار»، فسارعت مجلَّة أخرى، هي «الاكسبريس»، إلى نشره، وقامت الدنيا ولم تقعد في فرنسا.

إذاً، المشكلة ليست في وجود الفساد بحدِّ ذاته، بل في الحلف الحديديِّ للدفاع عنه، وفي عدم القدرة على تحدِّيه.

البروتوكول الأسود غير الـمُعلن بين المنابر الثقافية العربية، هو الذي يجعل الفضيحة مستحيلةً. فما ترفض نشره جريدة «الحياة» سترفض نشره جريدة «النهار»، وما ترفض نشره جريدة «السفير» سترفض نشره جريدة «المستقبل»... ولذلك واظبت تلك المنابر على نشر مقالات تذمُّ الإنترنت ومواقعه لأنَّ النشر الالكتروني شكَّلَ متنفَّساً للنشر غير ملتزم بالبروتوكول الأسود.

بروتوكول العار هذا، هو الذي منع النقاش حول أكبر فضيحة ثقافية يمكن أن تحصل في ثلاثة عقود، ألا وهي تهليل «رمز التنوير» جابر عصفور لفوزه بجائزة «القذَّافي العالمية للأدب»، بعدما استحى كاتبٌ إسبانيٌّ، هو خوان غويتيسولو، من قبولها لدواعٍ أخلاقية.

بل إن جميع الكتَّاب العرب الذين كانوا قد امتدحوا غويتيسولو

لرفضه استلام الجائزة، صمتوا صمتاً مريباً ومخجلاً إزاء قبول عصفور لها، ودفاعه عنها وعن صاحبها الدِّكتاتور الليبي!

ستار إعلامي حديدي مهمَّته الدفاع عن صفوة الفساد الثقافي ورموزه، يمنع السجال بحجَّة «المكائد»، وفي الوقت ذاته يحتفي بالفضائح الآتية من مختلف أصقاع الأرض.

لذا، وفي سياق المعركة ضدَّ الفساد الثقافي العربي، لا بدَّ من تعزيز المساحة التي تسمح بفضحه. بمعنى حماية الصحافة الشجاعة التي يريدون تلطيخها بعبارات من مثل «صحافة صفراء»، كما يفعلون مع مجلَّة «الغاوون».

المعركة اليوم من أجل خلق ثقافة عربية نظيفة، تبدأ برفع الصوت وقول الـ«لا» تلوَ الـ«لا»، وبكلِّ الإمكانات المتاحة، وأوَّلها الفضيحة المسؤولة التي باتت آخر الدواء.

بالفضيحة. نعم بالفضيحة.

وأكاد أقول: الفضيحة النبيلة.

مجلَّة «الغاوون»، 1 آذار 2010

ثلاث سنوات من عمر «الغاوون»: الملكُ عارٍ

تقول الحكاية إنَّ نسَّاجاً ماكراً أوهمَ الملكَ بأنه يستطيع أن يصنع له ثوباً سحرياً لا يراه إلَّا الأذكياء، وبذلك يكتشف الملك مَن هو الذكي ومَن هو الغبي من شعبه وحاشيته. وجلس النسَّاج وراء النَّوْل محرِّكاً يدَيه في الهواء وكأنه ينسج ثوباً حقيقياً.

جاء الوزير ولم يرَ الثوب، لكنه أبدى إعجابه به كي لا يبدو غبياً. وجاءت زوجة الملك وتنهَّدت إعجاباً بالثوب كي لا يُقال إنها غبية. وجاء الملك ولم يرَ الثوب أيضاً، لكنه اصطنع ما اصطنعه الآخرون كي لا يبدو ملكاً غبياً.

انتهى النسَّاج من حياكة الثوب الوهميّ. ولبسَ الملكُ الثوبَ وخرج عارياً يتبختر بين الناس الذين راحوا يتسابقون في إصدار تأوُّهات الإعجاب بالثوب الذي لا يراه الأغبياء.

لكنَّ طفلاً صغيراً أشار بإصبعه الصغيرة إلى الملك العاري وصرخ: الملك عارٍ.

وفجأةً اكتشف الناس بأن الملك عارٍ حقاً.

***

اليوم تُكمل مجلَّة «الغاوون» سنتها الثالثة بروح ملؤها التحدِّي. خاضت الكثير من المعارك وينتظرها الكثير. لم تُهادن أحداً على الرغم من حرب التعتيم المنظَّمة التي تخوضها المنابر المتضرِّرة عليها، ولم تقبل رشوة أحد.

الملوك الصغار الذين كشفتْ عُريَهم كثرٌ، لكنَّ الأهمَّ أنها كشفت عُريَ القيم البائسة التي تحكم وسطنا الثقافي العربي من فساد وانتهازية وشِللية وتقرُّب من كلِّ سلطةٍ.

ثلاث سنوات من عمر «الغاوون»: الملك عارٍ، الملك عارٍ، الملك عارٍ.

افتتاحيَّة مجلَّة «الغاوون»، 1 شباط 2011

أدب أطفال أم أدب جوائز؟

صدرت القائمة الطويلة لـ«جائزة زايد لأدب الطفل» وفيها أسماء فائزة ليس لها علاقة بأدب الطفل لا من قريب ولا من بعيد، ولم يُعرَف عنها أنها كتبتْ حرفاً واحداً فيه من قبل، ومن بين تلك الأسماء، طبعاً وأبداً، السيِّدة الأولى للجوائز العربية جمانة حداد التي هبطت عليها موهبة كتابة أدب الأطفال فجأة كما تهبط الصحون الطائرة على سطح الأرض!

وإضاءتنا على هذه المسألة، حقيقةً، لا تأتي من باب الحرص على نزاهة الجوائز العربية، التي أثبتت وتُثبت بأنها مجرَّد شيكات مالية، ولا من باب فضح الفساد الثقافي المستشري فقد بُحَّ صوتنا في هذا الصدد... بل نتوقَّف عند هذه المسألة لنقول لهؤلاء: أبعدوا ألاعيبكم عن أدب الأطفال، فيكفيكم ما فعلتموه بأدب الكبار.

والحقيقة التي يجب الاعتراف بها هي أنَّ الثقافة العربية حتى الآن لا تبدو جدِّية في مواكبة ثورات التغيير التي تعصف بالعالم العربيّ، وهذا يُدلِّل على أن أزمة الثقافة العربية ليست فقط أزمة

تهميش وانكفاء، بل أزمةُ ذهنيةٍ ترفض أيَّ شكل من أشكال التغيير. فإذا كان الإنسان البسيط والجائع ينزل إلى الشارع مطالباً بالتغيير، فحريٌّ بالمثقف العربيّ أن يخجل من نفسه فيبدأ بهذا التغيير، ابتداءً بأنماط العلاقات السائدة في هذه الثقافة والتي نجحت في إقامة نظام ثقافي عربيّ فاسد لا يختلف في شيء عن النظام السياسي العربيّ الفاسد.

انخراط المثقف العربي في الحراك الثوري لا يُعبَّر عنه فقط بتأييد الثورات كلامياً، بل باستلهام المنطلق الذي انطلقت منه هذه الثورات لإحداث التغيير الجذري في مجتمعات الفساد والتسلُّط والدكتاتورية.

فكيف نُصدِّق مثقَّفاً يقول إنه مع مكافحة الفساد السياسي في حين أنه أحد زعماء الفساد الثقافي؟

رئيس قسم ثقافي في جريدة عربية شهيرة يكتب عن الدكتاتور، في حين أنه لو أصاخ السمع قليلاً إلى الوشوشات المتداولة بين صحافيي قسْمه لعرف بأنهم ينظرون إليه كدكتاتور أيضاً، بل كزعيم عصابة بسبب ممارساته الشِّللية ومحسوبياته وزبائنيته.

ما لم يتغيَّر شيءٌ في طريقة تعامل الثقافة العربية مع نفسها فكلُّ كلام المثقَّفين عن الثورة لن يكون أكثر من هراء.

اليوم، ثمَّة عقلية قديمة تتصرَّف بالطريقة القديمة ذاتها غير مكترثة بأيٍّ نقدٍ.

اليوم، يظنُّ البعض بأنَّ تراصَّ المنابر الصحافية ضدَّ الأصوات النقدية المنفردة كفيلٌ بمنع كشف المزيد من الفضائح.

اليوم، ثمَّة كتبٌ تصدر مكتوبٌ على أغلفتها «مخصَّص للأطفال»، وكان يجب أن تصدر وقد كُتِبَ على أغلفتها: «مخصَّص للجوائز»!

افتتاحيَّة مجلَّة «الغاوون»، 10 كانون الثاني 2012

«ليلة السكاكين» أم لياليها؟

كتبَ الصديق الأديب الياس خوري مقالاً مؤثِّراً بعنوان «النقيب الأبدي» (القدس العربي، 15 حزيران 2010)، تحدَّث فيه بمرارة عن «الإقطاع (العائلي) المهيمن على الصحافة المكتوبة»، وتحدَّث عمَّا سمَّاه «ليلة السكاكين» في جريدة «النهار»، حيث تمَّ طرد ثلاثة وخمسين صحافياً -بينهم الياس نفسه- بأكثر الطرق إهانةً.

لكنَّ الأهمَّ من ذلك أنَّ الياس تحدَّث -متعجِّباً- عن «الصمت المريب» للصحافة!

وبلا أيِّ ادِّعاء لحسن النيَّة، سأبدأ من هذه النقطة تحديداً: «الصمت المريب»!

فما كتبه صديقي ومديري السابق في العمل لسنواتٍ، بدايةً من استغرابه بأنَّ «جميع الصحف اللبنانية لم تنشر الخبر»، وصولاً إلى قوله بدهشة: «يومها اكتشف الصحافيون اللبنانيون أن لا أحد يدافع عنهم في محنتهم»... أقول إنَّ ما كتبه الياس خوري مستغرباً، هو مدعاة للاستغراب أيضاً! فـ«ليلة السكاكين» في «النهار» كانت قد

سبقتها ليالي سكاكين عديدة، وكان الياس حينئذٍ على رأس عمله كرئيس تحرير لـ«الملحق الثقافي»، ومرَّت تلك الليالي وسكاكينها وكأنَّها لم تجرح أحداً!

إذاً، نحن الآن لسنا في سجالٍ مع أصحاب الصحف، بل في سجالٍ مع مثقَّفين يخذلون بعضهم بعضاً لمجرَّد الحفاظ على منصب أو وظيفة. نحن في سجالٍ مع أنفسنا حين لا يكون جرحُ بعضنا جرحاً لنا.

حديث الياس خوري المتأخِّر عن «الاتفاق على عدم تدخُّل الصحف في الشؤون الداخلية للصحف الأخرى»، يجب ألا يمرّ بلا سؤال، كون الياس خوري كان رئيس تحرير.

وبالطبع لستُ في موقع المزايدة عليه، لأنني أعرف الزواريب السوداء للصحافة اللبنانية، لكنني فقط أردتُ أن أقول له بأنَّه ما دام قد تقبَّل ذلك لزملاء له طوال عقود فكان من الأفضل له أن يتقبَّل ذلك الآن لنفسه، وبلا ضجيج أيضاً.

مجلَّة «الغاوون»، 1 تموز 2010

اتحاد الاهتراء

الغرائب التي تُصادف الداخلَ إلى الموقع الالكتروني لـ«اتحاد الكتَّاب العرب في دمشق» كثيرةٌ، بل ولا يمكن حصرها.

ويمكننا أخذ باب «تراجم أعضاء اتحاد الكتَّاب العرب في سوريا والوطن العربي» نموذجاً لتقديم بعض العيِّنات.

«الدكتور رفعت الأسد»؟ نعم رفعت الأسد (ما غيره!) ما يزال عضواً حتى اليوم في الاتحاد(*)، بل وبتعريفٍ يدلُّ على خشوع واحترام كبيرَيْن، مع تذكير بأوسمته ومناصبه السابقة وبأنه «عضو جمعية البحوث والدراسات»! (هل نتذكَّر قرارات الفصل التي اتَّخذها الاتحاد بحقِّ أدباء مرموقين، ودَفْعه لبعضهم إلى الاستقالة، ورفضه عضوية بعضهم الآخر؟).

لكن ماذا نفعل وهذا الاتحاد مختصٌّ بمديح السلطة أياً كانت هذه السلطة! ففي الباب نفسه الذي نتحدَّث عنه لا نجد عشر كلمات في السيرة الخاصة بشعراء من طراز رياض الصالح الحسين وسنيَّة صالح... في حين نجد المطوَّلات في عضو الاتحاد العماد مصطفى

طلاس ونياشينه وأوسمته التي قال الاتحاد إنها 39 وساماً في حين أن عدد كتبه 46 كتاباً. وفي مقابل هذا الحرص الشديد على تحديث المعلومات أوَّلاً بأوَّل بخصوص الفروقات في المسابقة الجارية بين عدد كتب طلاس وعدد نياشينه، نرى إهمالاً تامَّاً لتحديث ليس أسماء الكتب، بل حوادث الوفيات أيضاً!!

فالأدباء: بلند الحيدري، خالد البرادعي، محيي الدين صبحي، محمد الماغوط... ما يزالون أحياء يرزقون في سيرة الاتحاد!

أمَّا الأخطاء الطباعية فمأثرة كاملة. وإن كان يُلحَظ «عدل» الاتحاد في توزيع الأخطاء على الشعراء، وخصوصاً الشعراء الأخصام! ففي حين كُتِبَ اسم الشاعر اللبناني شوقي بزيع هكذا: «شوقي بزيغ»، كُتِبَ عنوان ديوان منافسِه الشاعر اللبناني محمد علي شمس الدين «قصائد مهرَّبة...» هكذا: «قصائد مهريَّة»!

حمانا الله شرَّ الاهتراء الذي يرتع فيه هذا الاتحاد.

افتتاحيَّة مجلَّة «الغاوون»، 1 أيلول 2010

(*) بعد مدَّةٍ من نشر هذه الافتتاحيَّة، التي أحدثت ضجَّةً في أوساط الكتَّاب السوريين، قام «اتحاد الكتَّاب العرب» بفصل «الكاتب رفعت الأسد»!

الصنم والمانيكان

في اللقاء الذي أجراه «الملحق الثقافي» مع الصديق الشاعر اللبناني بول شاوول ما يصلح مدخلاً للشروع في نقاش صريح لا يفوت له وقتٌ.

فالسُّكْرُ بترديد عبارات من مثل: «إذا كنتُ صنماً فحطِّموني» هو في نهاية الأمر نرجسية جوفاء. خصوصاً حين تأتي في سياق لغة استعلائية في «تقييم» تجربة الجيل الشاب بهذه الطريقة: «الشباب لم يصلوا».

لا أظنّ أن حلمَ شاعرٍ الوصول (إلى أين؟)، ولا نعرف أصلاً ما هي الأرض التي وصلها بول شاوول وينتظرنا عندها كي نصل. لكنني أعرف بأن كلاماً استعلائياً يُقال في تجارب الشباب، بهذا الشكل، كان الأجدر مراجعته حين يصدر عن شاعرٍ لم يمضِ شهران على صدور كتبه الثلاثة التي قلَّد في أحدها قصيدةً من قصائد هؤلاء الشباب!

هذا الكلام ليس وليد لقاء «الملحق» بالطبع، بل له مقدِّمات

مستمرَّة، و«حركات» لا تصنع صنماً يستفزُّ لتحطيمه، بل مانيكانَ لا يلتفت إليها أحد.

والصنم غير المانيكان، ودعوى التقديس غير دعوى الترويج والدعاية. وإذاً سيكون من المضحك أن يقول المرءُ: «إذا كنتُ مانيكانَ فحطِّموني».

«عصبيَّة» بول شاوول المتأخِّرة في لوم التاريخ الشعري وتقريعه على أنه «قبض» الروَّاد وتجاهله هوَ، لم تخضع لمساءلة جدِّية عن دوره هو -تحديداً- في ذلك. لا بل إن هذا التحوُّل المتأخِّر جاء، مع كلِّ أسف، نتيجة حزازة شخصية مع أحد هؤلاء الروَّاد، أكثر من كونه تراكماً نقدياً.

لكنَّ هذه «الفَيْقة» المتأخرة على الريادة (الشخصية) وضدّها (الملاعين)، لا تعني الشعر الجديد في شيء. كما أن تجميد النفس لإقناع التاريخ بالتقاط صورة تذكارية ليس حلَّاً. ثمَّ إن هذا التاريخ الذي يلومه شاوول قد تعلَّم أيضاً، وطوَّر نفسه ضدَّ فذلكات الصنمية والمانيكانية والريادة.

ولذا على العزيز بول، وسواه من أبناء جيله الأعزَّاء، الكفّ عن القيام بحركات غير لائقة يفترضون أنها تُعزِّز فرضيَّة تصنيمهم، في حين أنها باتت تثير استهجان الجميع:

فعلى سبيل المثال جميع المقالات التي يكتبها بول شاوول عن الشعر والشعراء يُوقِّعها بأحرف اسمه الأولى، في الوقت الذي يُزركش فيه اسمه كاملاً في المقالات السياسية!

وعلى سبيل المثال ينشر بول شاوول أخباراً عن نفسه، في الصفحة الثقافية التي يُديرها بنفسه، تصفه بـ«العبقرية» و«سطوة الحضور» و«مفاجأة المدينة» و«الحيرة بين نظّارتَيْن» وإلى ما هنالك من مفردات يندى لها جبين المهنية.

وعلى سبيل المثال يروِّج بول شاوول بأنه حين يريد تكريم أحدٍ ما يضع مقالة هذا الأحد تحت مقالته (هو) يوم السبت، كما فعل ذات مرَّة مع شاعر بارز مثل شوقي بزيع.

وعلى سبيل المثال «يَفْلقنا» بول شاوول بحكاية عزلته في مقهى أشبه بصالة العرض...

بالطبع لا تُوقِّع الأصنامُ الشعرَ بأحرف أولى، والسياسة باسمها الثلاثي. ثم إن الأصنام لا تكتب مقالاتٍ أصلاً، ولا ترتاد المقاهي، ولا تُساجل آخرين وتستعطف الأصغر سنّاً لمعاملتها كأصنام.

أيضاً، ليس باستغفال عقول الشعراء (والاستخفاف بها) تُصنَع أصنامٌ في وسعها منح بركات الجلوس تحتها؟ ثم إن هذا الجيل الذي «لم يصل»، أنتج شعراؤه كتباً أفضل من هذه الثلاثية التي رشقنا بها

بول شاوول دفعة واحدة في حركة استعراضية جديدة.

أما حكاية العزلة التي باتت موضة رائجة لدى كلٍّ من يظنُّ أنَّها خطوة ضرورية في طريق الوصول إلى الصنم، فلا يُساويها غرابةً إلا ادِّعاء التواضع في حوارٍ أحصينا فيه مئتَيْن من مفردة «أنا»!!

هذا الكلام لا يقوله أحدٌ لأحدٍ في زمننا التكاذبي الرديء، لكنني سأقوله للعزيز بول شاوول، كما قلتُ غيره من قبل لأعزَّاء آخرين، روَّاداً و«مُسْتَرْودين». فلا ينبغي أن تكون تبعيَّة جيله للروَّاد مثالاً لما يجب أن تكون عليه علاقة الجيل الشاب بمن سبقه.

ثمَّ إن مثل هذا الكلام الصريح ضروري وحيوي لمن نريده أن يبقى شاعراً بيننا، بعيداً عن جمود الصنم و«بوز» المانيكان.

فإذاً، هذا بعضٌ من الكلام الصريح إلى العزيز بول شاوول، والبعض الآخر ربما أقوله له حين نلتقي في مقهى «الليناس»؛ هناك حيث يمارس عزلته.

مجلَّة «الغاوون»، 1 نيسان 2009

فأس عباس

الهجمة الشرسة والمتأخِّرة التي يشنُّها الشاعر اللبناني عبَّاس بيضون على «الروَّاد»، مع وجود شبهة إلقاء باللائمة على الأجيال اللاحقة، تدفعني دفعاً إلى سؤاله الأسئلة الآتية:

مَنْ جعلَ الروَّاد قدِّيسينَ يا عبَّاس؟ ألستَ أنتَ وأبناء جيلك؟ مَنْ مدح أدونيس أكثر منك؟ ومَنْ مدحَ أُنسي الحاج أكثر من بول شاوول؟

مَنْ جعل أدونيس آية الله؟ ومن جعل أُنسي الحاج بطركاً؟

بخسُكَ اليوم إنجاز «الروَّاد» لا يصلح أن يكون تصحيحاً لخطأِ رفعكَ السابق لهم إلى مصاف الآلهة. لا يُصحَّح أسوأ المديح بأسوأ الهجاء!

نكاد لا نقرأ لك اليوم حديثاً صحافياً إلَّا وخلاصته تفاهة المنجز الأدبي لـ«الروَّاد»! ومجيء تكريسهم من خلال لحظة ضرورة تاريخية محضة (بينما يستخدم عبَّاس بيضون مصطلح «الروَّاد» كاسم مستعار لأُنسي الحاج لمهاجمته، يستخدم بول شاوول مصطلح

«الروَّاد» كاسم مستعار لأدونيس لمهاجمته!).

اليوم، وفي وصفي واحداً من هؤلاء الشعراء الشباب الذين تواظب على القول إنك «تتعلَّم» منهم، أريد أن أقول لك بأن التاريخ الأدبي لا يمكن «ابتزازه» بهذه الطريقة؛ حتى لو حالف «الروَّاد» وخانكَ أنت كما تعتقد.

نحن كشعراء شباب، أوَّل من سيكون معك في محوِ هذه الهالة، المزيَّف قسم كبير منها، حول «الروَّاد»، وأوَّل من سيساعدك على تحطيم الصورة الصنمية لهم. لكن ليس بهذه الطريقة الدينية في تحطيم الأصنام. ليس بفأس إبراهيم الخليل التي يُقال -وأظنُّكَ تعلم- بأنها عَلِقَتْ في عنق كبيرهم.

على الأقلِّ، لا نريد لفأسكَ أن تَعلَقَ في عنقِ أحدٍ!

مجلَّة «الغاوون»، 1 حزيران 2008

مجلَّة «الأديب»

مجلَّة «الأديب» التي كانت نموذجاً للعمل الثقافي المُخلِص والمؤثِّر والطويل النَّفَس، لا نعرف اليوم شيئاً عن مصير أرشيفها الضخم، والذي لا بدَّ أنه يحتوي على كنوز ورقية من رسائل وموادّ وصور كانت لتكون ذاكرةً ورقيةً كاملةً لنصف قرن من تاريخنا الأدبي.

لا يمرُّ شهر إلَّا وتتناقل صحافتنا الثقافية خبراً مترجماً عن العثور على صورة لشاعر فرنسي، أو رسالة مجهولة لشاعر أميركي، أو طبعة أولى من كتابٍ مهمٍّ لشاعر إنكليزي... وتتحوَّل القضية عندنا (بالعدوى) إلى ما يشبه قضية الرأي العام... غافلين عن كنوزنا الأدبية لقاماتٍ تكاد تُضاهي تلك القامات الغربية.

وكنَّا قد أعطينا مثلاً، في عدد سابق من «الغاوون»، عن مجلة عراقية خصَّصت غلاف أحد أعدادها للحديث عن تغيير ديكور في منزل شاعر إنكليزي مهم مُبديةً قلقها، دون أن تنشر خبراً صغيراً عن المنزل التاريخي لجبرا إبراهيم جبرا الذي تمَّ تدميره عن بكرة أبيه بما فيه من كنوز لوحات ومخطوطات وكتب مفقودة... والذي لا

يبعد أكثر من خمسمئة متر عن مكتب المجلَّة المذكورة!

بالطبع، المشكلة مركَّبة، وتحتاج -إضافةً إلى إعادة الثقة بالذات- إلى رأسمال وازن يستثمر في الثقافة. هذه حقيقة لا تمكن مُجافاتها. لكننا لو بدأنا، نحن أصحاب الهمِّ الثقافي، بتبنِّي قضايا من هذا النوع وإثارتها في منابرنا، فلربَّما ستجلب اهتمام رجال أعمال مثقَّفين. ولنبدأ مثلاً بالأرشيف الورقي لمجلة «الأديب» والذي لا نعرف هل هو قد ضاع أم أُتلِفَ أم أنه موجود في قبوٍ وينتظر اليد التي ستُخرجه إلى الضوء؟

افتتاحيَّة مجلَّة «الغاوون»، 1 تمُّوز 2011

«صلعة» الشعر العربي

في عيد رأس السنة قبل الماضي، عند بلوغ الأزمة السياسية في لبنان ذروتَها من خلال الفراغ الرئاسي، كان لافتاً أنَّ أحداً من الذين سألتْهم الروبرتاجاتُ التلفزيونية، التي تُجرى عادةً قبل العيد بأيام، عن أحلامهم في السنة الجديدة، لم يتحدَّث عن حلم خاصٍّ، كشراء بيت أو سيَّارة أو زواج، بل تحدَّث الجميع عن أمنيةٍ وحيدةٍ: أن يتصالح السياسيون!

أذكر هذه الحادثة لا لأتكلَّم عن السياسة، بل لأتكلَّم عن الشعر. فكما حَرَمَت الأزمةُ السياسيةُ المفتعَلةُ الناسَ من حقِّهم في بقايا هذه المساحة الشخصية للأمنيات الصغيرة والأحلام الصغيرة، حَرَمَتْ أزمةُ الشعرِ المفتعَلةُ الكثيرَ منَّا التفكير بمساحته الشخصية أيضاً.

بالفعل ثمَّة وهمٌ -وقعنا إلى حينٍ تحت سطوته- يفيد بأنَّ الشعر العربي يخوض معركةً وجوديةً، والأدهى أنَّ بعضنا قرَّر خوضها على طريقة الأنظمة العربية ذاتها، أي تحت شعار: لا صوت يعلو

فوق صوت المعركة!

أتحدَّث عن «معركة»، لكنَّها في الحقيقة «معارك»، أو هو الوهم الذي تفرَّع وتشعَّب، فقرَّر كلٌّ منَّا ملاقاته في المكان الذي يعتقد أنَّه ينتظره فيه.

فمعركةٌ في مصر على «شرعيَّة» قصيدة النثر، ومعركةٌ في لبنان على «ملْكيَّة» قصيدة النثر، وأخرى في المغرب على «مناصب» الشعر، وغيرها في العراق... إلخ.

والأخطر في «معارك» من هذا النوع هو أن نرجسية الشعر تراجعت لتتقدَّم مكانها نرجسية الشعراء. نرجسية ذواتهم لا نرجسية قصائدهم.

أقول: الشعراء، وأقصد بعضهم. أقول: الشعراء، وأقصد هؤلاء الذين شابهوا السياسيين في كونهم سبب حرماننا من مساحتنا الشعرية الشخصية.

وعوض أن تتقدَّم (في معركة كهذه تزعم أن الشعر -وليس سوى الشعر- هدفها) نرجسيةُ الشعر على نرجسية الشعراء، نرى الأمر بالمقلوب.

ناهيك عن محاولة هذه النرجسية لدى البعض المماهاة بينها وبين نرجسية الشعر على الطريقة السياسية تماماً: «أنا الدولة

والدولة أنا»؛ هذه الجملة التي منذ أن قالها الملك الفرنسي لويس الرابع عشر (1638 – 1715) باتت شعار الاستبداد السياسيّ حتى يومنا هذا.

«أنا الشعر والشعر أنا» جملةٌ تصلح عنواناً لمعظم المؤتمرات الشعرية العربية البائسة التي حكمتها عقلية الاستبداد والإلغاء السياسيَّيْن ذاتها، بدعاوى معارك زائفة لا تملك وجهة نقدية قدر ما تملك مطامعَ شخصيةً لا تبدأ بالجوائز ولا تنتهي بتذاكر السفر!

ولا يخفى على لبيب أنَّ الفارق بين نرجسية الشعر ونرجسية الشعراء ليس فارقاً مُختلَقاً أو وهمياً، كما أنه لا يكون جسيماً في حال كانت نرجسية الشعر في مأمن. لكن ما الذي يمكن فعله إزاء شعراء يعيشون حالة بطالة شعرية وحالة ازدهار سلطةٍ في آنٍ واحد؟ ماذا نفعل بشعراء أخرجتهم إلى الضوء علاقاتُهم الشخصية وانحناءاتهم لأصحاب النفوذ والسلطة؟ فراحوا يُحاكون -وهم الذين لا يملكون أدنى موهبة- النرجسيةَ المستساغةَ لشاعر العربية المُلهَم أبي الطيِّب المتنبِّي في قوله:

أمطْ عنكَ تشبيهي بما وكأنَّـما فما أحدٌ فوقي ولا أحدٌ مثلي

وعوض أن تكون أزمة الشعر العربي، حالها حال مثيلاتها

في العالم، أزمةَ مكانةٍ وقيمةٍ ودورٍ ونقدٍ، اقتصرتْ عندنا على محسوبيات ومؤتمرات ومهرجانات شخصية، وشخصية، وشخصية، على التوالي. فـ«شاعر» عوَّضَ غياب الموهبة بحضور السلطة، و«شاعرة» استبدلتْ قلمَ الحبرِ بقلمِ الحُمرة. وباتَ خَوْض معركة الكرسي والجائزة لدينا أهمّ من خوض معركة الحرِّية، بل ومعركة الشعر ذاته.

بالمناسبة صاحب مقولة «أنا الدولة والدولة أنا» هو أول من لبسَ الباروكة لأنه أصلع.

على الأقلِّ، فليأخذ شعراؤنا «الصلعان» بهذه المأثرة!

مجلَّة «الغاوون»، 1 حزيران 2009

النقد والصحافة

من الأخطاء الشائعة في الثقافة العربية أنَّنا عندما نريد التقليل من قيمة نقدٍ ما، نقوم بوصفه بـ«النقد الصحافي». تماماً كما تقوم العامَّة بوصف كلِّ كلامٍ قليل القيمة والصدقيَّة بأنَّه «كلام جرائد».

لكنَّ نصفَ التاريخِ المرموق للنقد الأدبيّ الغربيّ الرصين يُشار إليه بوصفه مقالاتٍ منشورةً في مجلَّات وصحف (بعضها الكثير يوميّ).

بعض تلك المقالات أحدث انعطافات كبرى في تاريخ النقد الأدبيّ. بل ويمكنني الإضافة بثقةٍ أنَّ بعض تلك المقالات كان سيفقد الكثير من تأثيره التاريخيّ لو لم يكن منشوراً في الصحافة.

فإذاً، العلَّة ليست في الصحافة، بل في فهمنا لها، في تسفيهنا لها، وسوء نيَّتنا في فهم هشاشتها ويوميَّتها وزوالها. وطبعاً في فهمنا الغريب لمعنى النقد، وحصره في خانة الأكسسوار والعلاقات العامَّة. والأسوأ فهم النقد كجزءٍ من البروباغندا الإعلامية لمصلحة النافذين!

إنَّ النقد الصحافيّ كان ليكون رافعةً حقيقيةً لنهضةٍ أدبيةٍ لدينا، لو أنَّه لم يتحوَّل إلى خزعبلات لفظية جاهزة، مع توظيف شخصيّ خدماتيّ جاهز أيضاً.

لذلك، مثلاً، بات جَمْعُ مقالاتٍ نقديةٍ صحافيةٍ لدينا في كتابٍ مدعاةً إلى الخفَّة والغمز (بسبب خفَّة تلك المقالات تحديداً)، في حين أنَّ هذا الأمر على العكس تماماً -من حيث جدِّيته- في الثقافات التي بلغ فيها النقدُ مرحلةَ النضجِ والتأثير في المسار الأدبي العام.

فللنقد الصحافيّ ميِّزات حيوية لا يمكن للنقد الأكاديمي التوافر عليها. هي بالضبط تلك الميِّزات التي حوَّلناها، عربياً، إلى نقاط ضعفٍ.

فمن المعروف أن كُتُب النقد الأدبيّ هي من فئة الأقلّ مبيعاً، حتى في البلاد التي تزدهر فيها سوق الكتب الأدبية. بمعنى أنَّ الصحافة، هاهنا، تمنح فرصةَ انتشارٍ أكبر للنقد الأدبي مع كلِّ مقالٍ مهمٍّ تنشره.

في حالتنا العربية، لا أعرف إذا ما كان لضعف الصحافة الثقافية إزاء الصحافة السياسية يدٌ في ذلك. لا أعرف إذا ما كان فهمنا المغلوط للمقالة السياسية، قد أثَّر على فهمنا اللازم للمقالة الثقافية (النقدية) أيضاً.

من يظنُّ بأنَّ الصحافة لا يمكن أن تكون عميقةً، لا يعرف شيئاً عن روح الصحافة.

ومن يظنُّ بأنَّ النقد لا يمكن أن يكون حيوياً، لا يعرف شيئاً عن روح النقد.

مسكينٌ النقدُ، ومسكينةٌ الصحافةُ، اللذان لم نؤمنْ بأهمِّية العلاقة بينهما، واللذان اعتبرنا زواجهما عابراً وبلا أثرٍ، والأدهى... زواجاً غير شرعيٍّ!

مجلَّة «الغاوون»، 1 أيلول 2010

نحو نقد عربي حي

كلَّما توغَّلتُ أكثر في قراءة النقد العربي الحديث، فهمتُ أكثر فأكثر عُمقَ مأزق الشعر العربي.

وبينما يكون النقد، في الحالات الطبيعية، مُقوِّماً لأزمة الأدب، يصبح لدينا جزءاً من هذه الأزمة، بل الجزء الأهمّ منها.

تراثنا الشعري العظيم تحوَّل، في نقدنا المدرسيّ، إلى أكوام خردة تُصنَّف، بل تُفرَز، إلى مديح وهجاء وغزل وفخر ورثاء...

وتجربتنا الشعرية الحديثة لم تكن أفضل حالاً حين عجزت، في غياب النقد، عن بلورة فلسفتها الجديدة.

هكذا تحوَّل الجسر إلى عثرةٍ، وبَهِتَ الإنجازُ الشعريُّ حين لم يُوفِّر له النقدُ الضوءَ الكافي.

نقرأ الدراسات النقدية الصادرة في كُتُب، ونقرأ ما يُكتَب في صفحاتنا الثقافية تحت مُسمَّى «نقد» -وأنا هنا لا أُعفي نفسي أبداً من مسؤوليتي كمحرِّر- فنجدها، في أغلبها، إمَّا ألعاب رياضيات تقوم على حساب عدد بعض الكلمات وتكرارها واستنباط الدلالات

النقدية بناءً على ذلك، وإمَّا تهويمات لفظية تتجلبب بمصطلحات نقدية منزوعة السياق، لا رائحة فيها للحياة، أو للأفكار، أو حتى للانطباع الحيوي. سطحية مُنفِّرة مكمن خطورتها أنها تحاول الإيحاء بالعُمق، في حين أنها لا تقول شيئاً. نقرأها لنعرف مقدار التدمير الذي يستطيع إلحاقه «النقد» الرديء بالشعر الجيِّد.

ولكنْ هل حقّاً يستطيع الشعر أن يعيش بلا نقد؟ أو هل أنَّ النقد مجرَّد أكسسوار غيابه وحضوره لا يصنعان فارقاً حاسماً في سيرورة الشعر؟

وربَّما، قبل ذلك، من الأَوْلى أن نسأل أنفسنا السؤال الآتي: أليس في فهمنا «العنصري» للنقد كطفيليٍّ يتعلَّق بعربة الشعر قبل أن يسوطه الحوذيُّ -والتشبيه لنزار قبَّاني- تدميرٌ لجزءٍ مهمٍّ من إنجازنا الشعري نفسه؟

ألا يُشكِّلُ غيابُ النقد الحيّ غياباً، أيضاً، لجزء كبير من الشعر الحيّ؟

إنني أستفهم: أين هو النقد العربي الحيّ؟ أين هو ذلك النقد العبقري الذي يجعل الشاعر العربي يجفل من نفسه؟ النقد الذي يجعله يُعيد النظر في تجربته؟ والذي يجعله يكره نفسه قليلاً أو يحبّ نفسه قليلاً؟

... نحوَ نقد عربي حيّ.

نعم أنا أقصد أيضاً: نحو شعر عربي حيّ.

مجلّة «الغاوون»، 1 تشرين الأول 2010

«علمانية» نقدية
تفصل الشعر عن السياسة

لا نجادل في كون المواقف السياسية التي اتَّخذها الشاعر اللبناني سعيد عقل تجاه القضية الفلسطينية عنصريةً ومقزِّزةً إلى أبعد حدٍّ. لكنْ لا يجب، بحالٍ من الأحوال، استعمال ذلك للتقليل من قيمته الأدبية ودوره التأسيسي في الحداثة الشعرية العربية. بمعنى عدم جواز استخدام الموقف السياسي للمبدع ميزاناً نقدياً لتحديد القيمة الفنِّية للإبداع.

في الميزان النقدي، لا يمكن تبرير الهجوم الأخير الذي شنَّه مثقَّفون وأدباء عرب على حفل تكريم سعيد عقل بمناسبة بلوغه المئة عام، وتوافقهم على عدم أحقِّيته بالتكريم بسبب مواقفه السياسية العنصرية.

فهذا الخلط غير المهنيّ سيجعل غسان مطر أحقّ بالتكريم من سعيد عقل، وسيجعل سميح القاسم أحقّ بالتكريم من شعراء جماعة «شعر» مجتمعين. وهلمَّ جراً.

إنَّ مهاجمة سعيد عقل في موقفه السياسي ليست ممكنةً فحسب، بل ضرورية أيضاً. والتاريخ أَعلَمَنا بأنَّ كُثُراً من المبدعين الكبار يستحقُّون الشجبَ في موقفهم السياسي، بل والإنساني في كثير من الأحيان. ولكن هذا لا يعني أن نتَّخذ من ذلك ذريعةً للحطِّ من قيمة المنجَز الإبداعي الذي لا بدَّ من أن يملك حصانةً ما تحميه من انحرافات صاحبه. لا بدَّ من حماية الشخصية الافتراضية للإنجاز الإبداعي عند انحراف الشخصية الواقعية للمبدع، على الرغم من اعترافنا بصعوبة مثل هذا الفصل عندما ينحدر المبدع إلى قيعان العنصرية وتبرير التوحُّش، مرتدَّاً عن دوره التنويري إلى دور نقيض.

وسوى ذلك، سيكون على أميركا أن تمنع كتب عزرا باوند وتطرده من تاريخها الأدبي بسبب انحيازه الأعمى إلى الفاشية.

لكن مكان عزرا باوند كسياسي كان المحكمة، ومكانه كشاعر كان الخلود والتكريم.

ومكان سعيد عقل كسياسي متطرِّف يجب أن يكون المحكمة، بينما مكانه كشاعرٍ مجدِّدٍ هو التكريم.

وإذا كان لنا من احتجاج على التكريم الأخير لسعيد عقل فهو أنَّ الجهة المُكرِّمة هي الكنيسةً لا الشعراء، هو أنَّ سعيد عقل «تحتفل به طائفته لا قرَّاء العربية»، على ما كتب أُنسي الحاج.

هل سنكون مفتقدين للواقعية إذا ما طالبنا بـ«علمانية» نقدية تفصل بين الشعر والسياسة؟ بين المنجز الأدبي والموقف السياسي؟ بين آليات النقد الأدبي وآليات النقد السياسي؟

دعونا نحلم.

افتتاحيَّة مجلَّة «الغاوون»، 10 آب 2011

انتصاراً للصرصور

تنتابني الدهشةُ وأنا أقرأُ خبراً عن مؤتمرٍ لغويٍّ يُعقَد لتحديث اللغة العربية وليس بين مؤتمريه شعراء!

تقريباً، هذه المؤتمرات تشبه اجتماعاً يُعقَد لرؤساء معامل صناعية من دون وجود مخترعين.

والحقيقة أنَّ أزمة اللغة العربية تتعلَّق بنهج تربويٍّ، أوَّلاً يقوم على إقصاء حسِّ الابتكار، بل وذمٍّ مثل هذا الحسِّ إن وُجِد. وتقريباً، هذا هو حالنا مع الشعر، أيضاً، في تلك المناهج التي كرَّهت الأولادَ به.

وهنا لا يسعني إلَّا أن أتذكَّر تلك القصة التربوية الخبيثة التي أفسدوا بها فكرتنا عن الحياة والفنِّ والجمال، وأقصد بها حكاية النملة والصرصور.

فالنملة تعمل صيفاً، وتأكل شتاءً. والصرصور يُغنِّي صيفاً، ويجوع شتاءً. وفي النهاية على الأطفال أن يضحكوا على الصرصور ويسخروا منه، وأن يحذروا نموذجه أيضاً، باعتبار أن الغناء ليس

عملاً أو شيئاً ذا قيمة.

طبعاً الصرصور هو الشاعر، وليس مهمَّاً مَنْ تكون النملة.

الصرصور هو الشاعر الذي أرادوا منَّا أن نسخر منه ومن غنائه. الشاعرُ الـمُستخَفُّ بدوره ومركزيته. الشاعرُ الذي يستطيع تطوير اللغة التي لا يمكن للنمل أن يسير بها خطوةً واحدةً!

مجلَّة «الغاوون»، 1 أيلول 2010

ماذا لو تحول العرب إلى أيسلنديين؟

أيسلندا دُويلة أوروبية عدد سكانها أكثر بقليل من 300 ألف نسمة. معدَّل قراءة الفرد فيها 11 كتاباً في العام. دُورُ نشرِها تطبع سنوياً 2,5 مليون نسخة.

في المقابل، العرب تجاوزوا الـ360 مليون نسمة، أي أن عددهم يفوق عدد الأيسلنديين بأكثر من ألف ضعف. لكن معدَّل قراءة الفرد العربي يُقاس بالأسطر لا بالكتب، ربما 3 إلى 5 أسطر في العام... ولن نتابع أكثر كي لا نزيد نسبة الإحباط، خصوصاً أننا في أجواء «الربيع العربي».

بل إننا، وعلى العكس من ذلك تماماً، سنتفاءل ونتخيَّل حصول معجزة كبرى حوَّلت العرب إلى أيسلنديين بإغماضة عين... فماذا سيحصل عندئذ؟

ولنُجب عن هذا السؤال بالأرقام:

الـ360 مليون عربي -بعد تحوُّلهم أيسلنديين- سيقرأون حوالى

4 مليارات كتاب في السنة!

وإذا افترضنا أن سعر الكتاب الواحد 10 دولارات فإن مبيعات الكتب العربية ستكون 40 مليار دولار!

ولنُقسِّمْ هذا المبلغ على الـ2000 كاتب عربي من مؤلِّفي الكتب الناشطين الآن في الساحة الثقافية... وستكون النتيجة كالآتي:

20 مليون دولار لكلِّ كاتب عربي سنوياً!

واو! الكتَّاب العرب إذاً لن يضطرّوا بعد اليوم إلى مديح وتعداد جميع أسماء مسؤولي المنابر الثقافية في كلِّ مقالٍ يكتبونه كي ينشروا لهم، بل لن يضطرّوا إلى مديح الحكام من أجل عطاياهم، وسيرفضون «جائزة القذافي لحقوق الإنسان» (باستثناء جابر عصفور لأنه قَبِلَها «من أجل الشعب الليبي» كما صرَّح مؤخراً)، ولن يشرشحوا أنفسهم بالتقدُّم إلى جائزة «حكّ لي لأحكّ لك» أو «سمسرْ لي لأسمسر لك» مثل جائزة «بوكر العربية» من أجل الخمسين ألف دولار التي تُمنَح للفائز.

لكن الكتَّاب العرب أيضاً لن يركبوا الباصات بعد اليوم، لأنهم سيشترون سيَّارات فاخرة، ولن يسكنوا في الأحياء الشعبية بل في قصور مغلقة، ولن يمشوا في الشارع إلا وهم مطوَّقون بالحرس، وسيرفضون مقابلة قرَّائهم أو حتى الردّ على أسئلتهم بالإيميل...

وهكذا سيشعر القرَّاء العرب بالإحباط، ثم يبدأ نكوصهم عن القراءة، ورويداً رويداً سيكفّون عن كونهم أيسلنديين، وسيعودون إلى سابق عهدهم عرباً لا يقرأون ولا يشترون الكتب...

وهكذا سيعود الكتَّاب العرب إلى سابق فقرهم وباصاتهم وأحيائهم الشعبية و... طباعة كتبهم من جيوبهم الفارغة.

مجلَّة «الغاوون»، 10 تشرين الثاني 2011

حمارُ سعدي

في حكاية شهيرة لابن الجوزي أنَّ أحدهم وفدَ سوق النخَّاسين في الكوفة فقعد إلى نخَّاس قائلاً له: اطلبْ لي حماراً لا بالصغير المُحتَقَر ولا بالكبير الـمُشْتَهَر، إن أقللتُ عَلَفه صبر، وإن أكثرتُ عَلَفه شكر، لا يدخل تحت البواري، ولا يزاحم السواري، إذا خَلا في الطريق تدفَّق، وإذا كثر الزحامُ ترفَّق». فقال له النخَّاس مندهشاً: «دعني إذا مسخ الله القاضي حماراً اشتريتُه لك».

هذا الحمار الذهبي الذي طلبه أحدهم من نخَّاس، يبدو بأنَّ سعدي يوسف أعاد طلبه من «النخَّاس السوري» أدونيس، كما وَصَفه مؤخَّراً. ولأن أدونيس لم يُؤمِّن ذلك «الحمار»، غضب سعدي وقال ما قال.

بالطبع ليس مهمَّاً إذا ما كان هذا الحمار جائزةً أو إمارةً أو غنيمةً أو ترجمةً عالميةً حَرَمَ منها أدونيس سعدي، فالمهم أن حماراً أو حُمُراً كثيرة ضاعت، ويريد سعدي الانتقام لخسارتها.

ما يدفعني إلى مثل هذا التعريض، ليس فقط القصيدة التي

كتبها سعدي واصفاً فيها أدونيس بـ«النخَّاس السوري»، فهذا شأنه وشأن أدونيس. لكني أقصد أولاً اعتذاريته المقزِّزة التي كتبها بعد ذلك ممجِّداً أدونيس ومُحقِّراً السوريين، في ما يشبه عملية «استهبال» للقرَّاء. فلنقرأ:

«النخَّاس السوريّ؟ لكن أدونيس محرِّرٌ في الشعر والفكر. كيف يستوي الأمرُ، إذاً؟ دارةٌ باريسية؟ لكن أدونيس يسكن شقَّةً متواضعةً في باريس، لا دارةً» (جريدة «الأخبار»، 7 نيسان 2009).

أما لماذا النخَّاس السوري؟، يسأل سعدي ويُجيب: «لأن هذه الحرفة كانت قديمة في سوريا»!

أما لماذا كتب هذه القصيدة وأهداها إلى أدونيس؟، يسأل سعدي ويُجيب: من أجل «الـمُثُل العليا»!

هكذا، ومن دون أدنى شعور بالمسؤولية (الصحافية على الأقلّ)، يُلقي سعدي يوسف باللوم على القارئ الذي لم يُحسن القراءة، وعلى الشعراء أصحاب النوايا السيِّئة! ناهيك عن أن شاعراً في مكانته يشتم شاعراً آخر بانتمائه الجغرافي!

بالطبع لستُ من المكترثين بالانتماءات الجغرافية، ولا يعنيني دفاع من هذا النوع. ولو كان هجاءُ الانتماء مصرياً أو عراقياً أو مغربياً لقلت ما سأقوله، وربما بارتياح أكبر. لكنَّ البذاءة حين

يُدبِّرها الجُبن، وتصدر عن شاعر له حيثيَّة، تستحق كلاماً صريحاً.

ولو بقي سعدي على موقفه في القصيدة الأولى لكان للأمر مبرِّرٌ ما، ولقلنا إنه غَضَب، وإنه يحقُّ للشاعر أن يغضب من مهرجانات وأموال سَخَّفتْ كلَّ شيء. لكنَّ ما ورد في اعتذاريته (أين منها اعتذارية المتنبِّي إلى ابن إسحاق)، ينمُّ عن خفَّة واستخفاف ملأتهما ضغائن شتَّى غير مفهومة من شاعر ادَّعى التسكُّع منذ فتوَّته.

إنَّ المهزلة المكتوبة على دفعتَيْن بقلم سعدي يوسف، «هفوة» كبيرة لا نظنُّ، مع كلِّ أسفٍ، بأنها ستكون الأخيرة.

مجلَّة «الغاوون»، 1 أيَّار 2009

توابيت خفيفة

حين قرأتُ خبرَ موت الكاتبة المغربية مليكة مستظرف (36 عاماً) نتيجة صراع مرير دامَ عشرين عاماً مع القصور الكلويّ، بعدما دقَّت الكاتبة المسكينة أبواباً كثيرةً طالبةً المساعدة (جريدة «النهار»، 28 أيلول 2006)، تذكَّرتُ فتوى الخميني التي خصَّص فيها مبلغ ثلاثة ملايين دولار لمن يقتل الكاتب البريطاني من أصل هندي سلمان رشدي بعد صدور روايته الشهيرة «آيات شيطانية». تذكَّرتُ الفتوى، وفكَّرتُ بأننا أُمَّةٌ مستعدَّة لدفع ملايين الدولارات لقتل مؤلِّف، وغير مستعدَّة لدفع حفنة منها لإنقاذ حياته!

ماتت مليكة مستظرف، فتعرَّفتُ إليها من خبر وفاتها. لم أقرأ لها شيئاً قبل ذلك. من المحزن أن أتعرَّف إلى كاتبة وهي جثَّة. من المحزن أن تصلني في تابوت. ربما لا تكون مليكة كاتبةً يُشار إليها بالبنان، وتمتلئ هوامش مؤلَّفاتها بملاحظات القرَّاء المكتوبة بقلم رصاص. بل ربما لا تكون أكثر من امرأة متمرِّدة طبعتْ الكتبَ عوض الدخول في جمعيات. لكنها في نهاية الأمر ماتت من كليتَيْها،

ماتت من الخاصرة.

يقول الخبر إنَّ مليكة اعتصمتْ في فضاء المعرض الدولي للكتاب، وتردَّدتْ على مقرّ اتحاد الكتَّاب في المغرب طالبةً المساعدة، ويئستْ، وحاولت الانتحار، و«نجتْ» ثمَّ عاشت ما تبقَّى من أيامها مستندةً إلى عكَّازتَيْن.

لسنا في وارد إعداد لائحة بأسماء الكتَّاب الذين ماتوا جوعاً تحت الجسور وفي الحدائق العامَّة. ومن التزوير أن ننعاها شهيدةً للثقافة، دون القول بأنها ضحيةٌ للفقر.

بالطبع، لم نكن لنفعل شيئاً لو عرفنا مأساوية حالها قبل أن تموت، أو ربما كنَّا انتظرنا موتها كي نرسل لها تابوتاً «من الخشب الأكثر خفَّة» بتعبير الشاعر الألماني باول تسيلان.

توابيت خفيفة هي كلُّ ما في وسعنا القول إنَّه من صنع أيدينا. توابيت خفيفة، ومقالات خفيفة.

«الملحق الثقافي» لجريدة «النهار»، 8 تشرين الأوَّل 2006

«الأسبوع الأدبي»
(عن الصحافة الثقافية في سوريا)

«يا ربّ اخسفْ بالصهاينة الأشرار، واجعلْ منازلهم قاعاً صفصفاً. اللهمَّ يبِّسْ ضرعهم، وشتِّتْ شملهم مع الأمريكان، واقطعْ نسلهم... يا ربّ... يا ربّ... يا ربّ».

الكلمات أعلاه ليست لإمام جامع يُلقيها على الناس في خطبة جمعة، وليست لعجوز فلسطينية فقدتْ أبناءها وهُجِّرتْ من ديارها، بل هي، بكلِّ بساطة وخجل، مقطع من مقال «بديع» نشرته جريدة «تشرين» في زاوية «أوراق ثقافية» لـ«كاتب» يُدعى بديع صقور!

«اللهمَّ يبِّسْ ضرعم، وشتِّتْ شملهم، واقطعْ نسلهم»، وربَّما علينا إضافة: «وافقأ عيونهم» كي لا يقرأوا ما تنشره صحافتنا... يا ربّ... يا ربّ... يا ربّ.

***

في أحد أعداد ملحق «الثورة» الثقافي، نشرتُ قصيدةً أتكلَّم فيها بلسان حال المتنبِّي يقول أحد أشطرها: «سأقلبُ كلَّ العروش

بجَرْثي».

الرقابة العزيزة لم تفعل شيئاً بقصيدتي سوى استبدال كلمة «العروش» بكلمة «المروج»، فجاءت الجملة كالآتي: «سأقلبُ كلَّ المروج بجرثي»! وهكذا تحوَّل المتنبِّي من «ثائر» يدكُّ العروش إلى «ثور» يحرث الحقول والمروج!

ولدى المراجعة والاحتجاج قيل لي: الوزن لم ينكسر، فـ«مروج» على وزن «عروش»: فعولُ!

***

في مقالة بعنوان «اللفظ والالتباس في شعر الرافعي» لـ«ناقد» يُدعى ياسين الأيُّوبي، منشورة في جريدة «الأسبوع الأدبي» التي يُصدرها «اتحاد الكتَّاب العرب» (العدد 1424، تاريخ 13 كانون الأول 2003)، تُدهشنا «المهارة» النقدية في اصطياد الخطل ومواطن الالتباس في شعر الرافعي. وتجنُّباً للإطالة والتشويق، سأقوم باختيار بعض هذه المهارات مع التعليق عليها، كالآتي:

بيت الرافعي: «ورميتُ الدجى بساهرةِ الليل/ تفيض الدموع وجداً وحزنا».

تعليق الناقد: «لم أجد رابطاً بين عيش المرأة الساهرة وموت الشاعر، كلّ في اتجاه!».

تعليقي: الرافعي طبعاً يقصد بـ«ساهرة الليل» العينَ وليس المرأة الساهرة.

بيت الرافعي: «والله لو عقلَ الشرقُ/ لاختفتْ عنه شمسُهْ».

تعليق الناقد: «في البيت غموض والتباس، إذ كيف تختفي الشمس إذا استخدم الشرقُ عقلَه؟ ولا بدَّ أن يكون الكلام: ما اختفتْ عنه شمسه، عوضاً عن: لاختفت. وما أبعد الفرق في القصد!».

تعليقي: أراد الرافعي القول إنَّ شمس الشرق، أي سحره، تكمن في جنونه ولاواقعيَّته.

بيت الرافعي: «علمتُ من الثدي ما تُضمرينَ/ فقد وقفَ الثديُ حتى أشارا».

تعليق الناقد: «نحن في حيرة ووجوم، أيّ إشارة أرسلها وقوفُ الثدي؟ وما علاقة الوقوف بالإشارة؟!».

تعليقي: بالفعل، لقد «وقفَ الثدي حتَّى أشارا»!!

بيت الرافعي: «قد نال من العشق أطماعَه/ من نالَ بعد الكيمياء الغنى».

تعليق الناقد: «احتباس النظر في إقحام كلمة هي عنوان لعلم قائم بذاته: الكيمياء. أين نحن من الكيمياء؟ ناهيك بالغنى المتعلِّق

بالكيمياء!!».

تعليقي: طبعاً الكيمياء، أو الخيمياء كما كانت تُسمَّى، علم اختراع الذهب، واكتشاف المادة التي يمكن تحويلها إلى «الأسد الأحمر» أي مادة الذهب في لغة الكيمياء القديمة، ومن هنا علاقة الكيمياء بالغنى.

وستطول الأمثلة في هذه الدراسة «البارعة»، ولا أبالغ إذا ما قلت إنَّ جملة صحيحة فيها لا أجد، اللهمَّ سوى قول الكاتب: «أسئلة يطرحها القارئ ليرى منفذاً أو عذراً فلا يجد»!

والمشكلة أنَّها منشورة في جريدة تحمل اسم «الأسبوع الأدبي»! لكن وحيث أننا، في بلادنا، نُقيم للميِّت «أسبوعاً» نتقبَّل فيه التعازي، نستطيع أن نفهم معنى تسمية هذه الجريدة بـ«الأسبوع الأدبي».

«الملحق الثقافي» لجريدة «النهار»، 25 كانون الثاني 2004

المحتويات

فضائح الآخرين 07
ثلاث سنوات من عمر «الغاوون»: الملكُ عارٍ 12
أدب أطفال أم أدب جوائز؟ 14
«ليلة السكاكين» أم لياليها؟ 17
اتحاد الاهتراء 19
الصنم والمانيكان 21
مجلَّة «الأديب» 25
فأس عبَّاس 27
«صلعة» الشعر العربي 29
النقد والصحافة 33
نحو نقد عربي حي 36
«علمانية» نقدية تفصل الشعر عن السياسة 39
انتصاراً للصرصور 42
ماذا لو تحول العرب إلى أيسلنديين؟ 44

حمارُ سعدي 47
توابيت خفيفة 50
«الأسبوع الأدبي» 52

صدر للمؤلِّف

في الشعر:

- الرسَّام (1999)
- ملحق الشعراء السرِّي (2001)
- قصيدة فاطمة (2004)
- العروس (2007)
- تمثال امرأة تتجرَّع السمّ (2008)
- حصاة في كُليتي اليسرى (2013)
- السوريون شجر (2017)
- قبورٌ صغيرة (2021)
- أطفال تأخَّروا عن موعد النوم (2021)

في السرد:

- لحظة وفاة الدكتاتور (2011)

في النقد الأدبي:

- محاكمة الشِّعر (2021)

في الثقافة:

- فضائح الآخرين (2021)
- المثقَّف القديم (2021)
- عند تقاطُعِ الفنِّ والسياسة (2021)

في السياسة:

- حكُّ الصدأ (2017)
- مفاتيح (2021)
- مواكبات فكرية للثورة (2021)
- الجانب الصامت من المأساة (2021)

في الفلسفة:

- حقائق من نوع خاصّ (قيد النشر)

منشورات ماهر شرف الدين

من الكتاب

(...) بروتوكول العار هذا، هو الذي منع النقاش حول أكبر فضيحة ثقافية يمكن أن تحصل في ثلاثة عقود، ألا وهي تهليل «رمز التنوير» جابر عصفور لفوزه بجائزة «القذَّافي العالمية للأدب»، بعدما استحى كاتبٌ إسبانيٌّ، هو خوان غويتيسولو، من قبولها لدواعٍ أخلاقية.

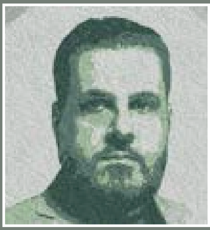
بل إن جميع الكتَّاب العرب الذين كانوا قد امتدحوا غويتيسولو لرفضه استلام الجائزة، صمتوا صمتاً مريباً ومخجلاً إزاء قبول عصفور لها!

لذا، وفي سياق المعركة ضدَّ الفساد الثقافي العربي، لا بدَّ من تعزيز المساحة التي تسمح بفضحه. بمعنى حماية الصحافة الشجاعة التي يريدون تلطيخها بعبارات من مثل «صحافة صفراء»، كما يفعلون مع مجلَّة «الغاوون».

المعركة اليوم من أجل خلق ثقافة عربية نظيفة، تبدأ برفع الصوت وقول الـ«لا» تلوَ الـ«لا»، وبكلِّ الإمكانات المتاحة، وأوَّلها الفضيحة المسؤولة التي باتت آخر الدواء.

بالفضيحة. نعم بالفضيحة.

وأكاد أقول: الفضيحة النبيلة.



شاعر وكاتب سوري من مواليد 1977. كتبَ في السيرة والنقد الأدبي والفلسفة والتاريخ والسياسة.

ISBN: 978-0-9995375-8-9